المحاضرة الثالثة

مناهج المستشرقين في دراسة النحو العربي بين العرض و التقييم

المنهج هو الطريقة التي يتبعها الباحث ليصل إلى حقيقة معينة فهو: فن التنظيم لمجموعة من الأفكار من اجل الكشف عن الحقيقة. ويرتبط تقدم البحث العلمي ونجاحه وتحصيل المعرفة بضرورة وجود منهج لهذا البحث ولابد أن يكون لكل حقل معرفي منهج علمي سليم ، يرتبط بالموضوع ويعالج محتوياته وفرضياته وطروحاته. وغالباً تكون سمات المنهج : **الدقة و التنظيم والملاحظة والتجريب والموضوعية,** ولابد للغة من منهج يدرسها لذاتها ويبعد عنها كل امر يقع خارج كيانها ونظامها لكي يصل إلى حقائقها ويصف قواعدها.

وللغة مناهج متعددة تختلف وتتعدد باختلاف و تعدد مرجعيات اللغويين، اشهرها : **المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي والمنهج المقارن.**

انتهج المستشرقون في دراستهم للنحو العربي مناهج مُستقاة من الحركة العلمية والفكرية في بلدانهم ، وينطلقون من المناهج التي تدرس بها لغاتهم ،فهم يعرضون العربية بالمناهج السائدة في بلدانهم حتى أصبحت هذه المناهج مسايرة للاتجاهات الفكرية في أوربا ولم يسير هؤلاء المستشرقون على خطى النحو العربي بغرض تعلم العربية مما أدى ذلك إلى تحقيق نتائج لا تتفق وبُنية العربية.

وأهم هذه المناهج:-

أولاً: المنهج الوصفي :

شاع استعمال هذا المنهج في بدايات القرن العشرين في التنظير والتطبيق معاً حتى سُميَّ (**علم اللغة الوصفي**)

يدرس هذا المنهج اللغة على وفق مستوياتها: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ويعتمد في ذلك على نظامين:

1. **النظام الخارجي للغة**: و يسلك هذا النظام الخطوات الآتية في دراسة اللغة:

أ. الاقتصار على اخذ المادة اللغوية من الناطقين بها مباشرة، أي الاهتمام باللغة المنطوقة وخاصة اللهجات.

ب. الاقتصار على زمان محدد ومكان معين , اي تحديد حقبة زمنية و رقعة جغرافية ، لتسهيل وصف اللغة ووضوح خصائصها الموحّدة.

2. **النظام الداخلي للغة:** ويُعتمد فيه على الاستقراء والتصنيف والإصلاح والتقعيد والموضوعية والتجربة والملاحظة ويبتعد عن المعيارية والمقارنة.

وبناءً على النظام الخارجي قسم المستشرقون مراتب العربية إلى:

الفصحى والفصيحة والعامية – أو اللغة القديمة والمعاصرة والتراثية – أوالعربية كلاسيكية أو العربية المعاصرة المكتوبة مما حداهم الى الاهتمام باللهجات العربية المحكية والمنطوقة. حتى انهم – أي المستشرقون – وضحوا خرائط (أطالس) لغوية للعربية ، والأطلس اللغوي من وسائل المنهج الوصفي.

فضلاً عن ذلك الاهتمام بالجانب الصوتي، لأنه يمثل الظاهرة اللغوية المنطوقة ، مع ظهور التغيرات اللغوية على هذه اللغة المنطوقة، فضلاً عن أهمية دراسة هذه الأصوات لأن منها تُبنى الكلمات ثم الجمل و التراكيب . أما النظام الداخلي فمن أُسسه الاعتماد على الاستقراء الذي هو خلاف القياس بل هو استدلال الخاص على العام، و الاستقراء في المنهج العلمي هو وسيلة للتحاليل وأساسه الملاحظة.

استعمل المستشرقون الاستقراء لإعادة توصيف المادة اللغوية وتقعيد القواعد النحوية، من ذلك:-

ـ توسيع مصادر اللغة العربية خارج عصر الاستشهاد.

ـ الابتعاد عن الاصطناع والتكلف في الأمثلة النحوية واللجوء إلى الواقع اللغوي الحيّ.

ـ وصف اللغة بناءً على معيار شكلي أو وظيفي،أي ارتباط الظاهرة النحوية بالظواهر الأخرى موضوعياً فتوضع الوحدات اللغوية في مجاميع وفقاً للتقارب والتشابه فيما بينها.

من المعايير الشكلية التي اعتمدها المستشرقون في تبويب و تصنيف النحو العربي ما يأتي:-

* عَدّ الظروف الزمانية والمكانية حروف جر، لأن ما بعد هذه الظروف يتشابه شكلاً مع ما بعد حروف الجر، فبعد الظرف وحرف الجر مجرور بالإضافة في الظرف وبحرف الجر في حروف الجر.

* ضم المثنى والجمع إلى العدد، وجعل المثنى وجمع الذكور والإناث جمعا خارجيا، وجمع التكسير جمعا داخليا.

* تقسيم الفعل في العربية إلى : فَعَلَ وفعّل وأفعل وتَفعّل وانفعل وافتعل وافعل واستفعل.

* تقسيم أزمنة الفعل إلى ماضي تام ، وماضي ناقص وماضي قريب وماضي بعيد وماضي متوسط بين القريب والبعيد، وهناك مضارع تام ومضارع يدل على الحال ومضارع يدل على الاستقبال ومضارع يدل على الماضي ... وهكذا.

* جمع الكلمات الملازمة للإضافة تحت باب الإضافة: مثل:- كل ونفس وعين وكلا وكلتا وبعض وغير وذر مع أن النُحاة القدماء وزعوا هذه الكلمات إلى أبواب نحوية عدة منها:-

التوكيد ← كل ونفس وعين

ذو ← الأسماء الستة

غير ← الاستثناء أوالنفي
بعض ← بدل
كلا وكلتا ← ملحقة بالمثنى ، وهكذا

أما الاحتكام إلى الوظيفة فجعلوا في ضوئها :-

- التوابع وتضم إلى جانب النعت والبدل الحال والتمييز
- جعل بدل الاشتمال والنعت السببي من الأساليب الاستدراكية.
- جمع أدوات النفي تحت باب واحد
- جواز تقديم المسند اليه (الخبر) على المسند (المبتدأ) مع بقاء الجملة فعلية نحو : محمد قام

وهناك احتكام للشكل و الوظيفة معاً مما نتج عن ذلك:-

- توسيع مفهوم الضمائر ليشمل: الضمائر الشخصية وأسماء الاستفهام, والإشارة والموصول. المعيار الشكلي المعتمد هنا هو أن هذه الأسماء ليس لها اصو لا وجذور اشتقاقية وهي أيضا جامدة \ ثابتة لم تتطور ،والمعيار الوظيفي تؤدي وظيفة الاسم لذا فدلالتها وظيفية لا معجمية
- عدّ أسلوب الطلب و جوابه المجزوم أسلوبا شرطيا
- جمع بعض التركيبات تحت باب واحد هو (شبه الجملة) منها:

النداء ← يا محمد
اسم الفعل ← مه وصه
حروف الجر المتصلة بالضمائر ← اليك وعليك
أسلوب التحذير ← الأسدَ الأسدَ
الضمير المنفصل ← إياك ،وأيضا تركيب مثل لا بدّ

فمن جهة الشكل هذه و التراكيب تخلو من الأسناد فهي طرف واحد وغالبا ما تكون أسماء وهي جمل تؤدي معنى معيناً.

- يكون أسلوب الشرط على شاكلتين:-

- شرط إمكاني وأداته (إن)
- شرط امتناعي وأدائه (لو)

- تقسيم الأعداد إلى نوعين:-

- أعداد أصلية : وهي: أحد, اثنان، ثلاثة، أربعة.....
- أعداد ترتيبية : وهي : الأول والثاني والثالث والرابع .....

وهي التي تُصاغ على وزن فاعل

ثانياً: المنهج التاريخي:-

سيطرة الاتجاه التاريخي على البحث اللغوي في فترة ما خاصة في القرن التاسع عشر. الغرض من ذلك :ـ

أ. الاطلاع على التاريخ اللغوي عبر مراحله الزمنية بدقة

ب. توسيع آفاق ومدارك فهم اللغة وتغيراتها التي طرأت عليها

ج. البحث في حياة اللغة بحقبها المتعددة حتى سُميت الدراسات على وفق هذا المنهج بالدراسات التتابعية أو الطولية

د. الاهتمام باللغة المكتوبة في الوثائق القديمة والأثار والنقوش والحفريات والمخطوطات.

لم يهتم علماء العربية بتتبع تطور العربية ولهجاتها بل جلّ اهتمامهم العربية الأدبية في لغة العلم والدولة والأدب والدين والقانون وهذا منع إعطاء فكرة واضحة عن تطور العربية ونموّها فضلاً عن هذا انشغال العرب بالتصدي ومحاربة (لحن العامة) وهذا يُعدّ في رأي بعض المستشرقين محاربة أو مقاومة التطور والتغيير اللغوي. ولو لا القرآن الكريم لكانت العربية لغة أثرية مندرسة.

ومن آثار هذا المنهج على النحو العربي ما يأتي :ـ

1. منع اكثر النحاة دخول أل التعريف على الكلمات(كل وبعض وغير) وأجازه بعضهم مثل الجوهري وابن الشجري وعدوا هذا تطوراً تاريخياً.
2. عدم التفريق بين أو وأم في أسلوب الاستفهام

يقول احد المستشرقين وهو يوهان فك أن العرب في بداياتهم النحوية فرقوا بين (أو) و(أم) في الاستفهام اللفظي كما سماه، فـ (أو) تستعمل في الاستفهام عن أحد الشيئين نحو أزيد عندك أو محمد؟ وهي بمعنى هل في الإجابة بنعم أو لا. أما (أم) فتستعمل للتعيين نحو: أزيد عندك أم محمد؟ وتقرن أم للاستواء مع (أم) وتمتنع مع (أو) نحو(سواء عليّ أقمت أم قعدت) حتى صار يقال:(سواء عليّ أقمت أو قعدت) وهذا خلط في الاستعمال.

3. شيوع التراكيب الاسمية نتيجة للتراجم والتأثر بتعبيرات من غير العرب، واستعمال المصادر العربية بدلاً من المصادر المؤولة نحو: ضروري جلوسك والأصل ضروري أن تجلس. ويرد بعض الدرسين على شيوع التراكيب الاسمية أن هذا الأسلوب هو الأسهل والأيسر في التعبير عن حقائق علمية ومنطقية ثابتة.
4. عدم الفصل بين المتضايقين (المضاف والمضاف اليه) نحو: علماء وأفكار العرب الأصح: علماء العرب وأفكارهم.
5.

ثالثاً: المنهج المقارن

يُعدّ هذا المنهج مفتاحاً لفهم التاريخ والتغيرات فيه وهو منهج يقوم على مقارنة الظواهر اللغوية في اللغات التي تنتمي إلى مجموعة لغوية واحدة.

أهدافه:

* الوقوف على الظاهر النحوية المشتركة وتتبع تكوين اللغة الأم لذلك ظهر ما عُرف بـ (النحو المقارن).
* متابعة التغيرات التي تطرأ على مجموعة لغوية واحدة وبحث الظاهرة اللغوية الواحدة في أكثر لغة يحقق استنتاج أحكام غير معروفة في هذه اللغة.

لم يهتم العرب قديما بهذا المنهج لسببين:-

الأول: اعتقادهم بأفضلية اللغة العربية دون غيرها من اللغات

الثاني: الدراسة اللغوية عند العرب قامت على منهج معياري .

نتائج هذا المنهج

أظهر هذا المنهج خصائص في العربية دون سواها مما جعلها تنفرد بهذه الظواهر وتمتاز بها، منها:-

*تضم العربية الظواهر: النعت والاشتقاق والتضاد والترادف والاشتراك اللفظي دون اللغات الأخرى، مما يعطي انطباعا بثراء العربية وغناها عن اللغات الأخرى.
* تفردت كذلك بوجود صيغ المثنى والإشارة والموصول والضمائر.
* كثرة صيغ الأسماء والمصادر، ففيها مصادر لأسم المرة واسم الهيأة وهناك أيضا اسم التفضيل وصيغ التصغير وغيرها.
* تفردها ببعض الأوزان مثل اسم الفاعل وصيغ المبني للمجهول في الأفعال وصيغ المطاوعة مثل: انفعل وافتعل.
* وجود الفعل المضارع المنصوب إلى جانب المضارع المرفوع و المجزوم.
* الوقوف على كلمات ذات جذور أحادية في العربية مثل: فو وفم بزيادة الميم.
* الوقوف على كلمات ثنائية الجذور، و منها: أبو وأخو وحمو ويرجح المنهج المقارن ثلاثية الجذور.